الفصل الثالث والعشرون

طرائق التعليم

نظن أننا استوفينا الكلام في الحض علي نشر العلوم في البلاد، وإنشاء المدارس، والمكاتب، وبيان الفرق بين الأمة المتعلمة والأمة الجاهلة، غير مدخرين جهدا في إظهار فضائل العلم الذي هو حياة كل أمة وشعب.

فبقي علينا أن نطلق عنان هذا القلم في التماس وجه من وجوه الإصلاح العلمية، ونريد بذلك اصلاح طرائق التعليم المتبعة. ليس في مصر فقط بل في سائر بلاد الشرق أيضا.

ونحن عندما نقول بلاد الشرق إنما نقصد بلادنا العثمانية، والمصرية، لا كل قطر شرقي؛ إذ لا تهمنا من كل شرق وغرب غير مصر والعثمانية.

ولا ينكر علينا القراء أن طرق التعليم في بلادنا فاسدة إلا ما كان منها متعلقا بتعليم أبناء الإفرنج في المدارس التي أنشئت في البلاد لنا ولهم، ولكن أصحابها يجرون في التعليم علي الخطة التي توافقهم وحدهم، دون أن تنطبق أقل انطباقا علي أحوالنا، وما نحتاج إليه.

وقصارى ما يمنحوننا إياه كأنما هم يجودون علينا بالنعمة التي ليس وراءها نعمة، إنهم يعلموننا علي يد أساتذة من الأجانب أيضا شذورا من لغتنا العربية، يلقنونا إياها في فترات من الزمن غير متتابعة ولا متلاحقة. بحيث نخرج من مدارسهم بعد قضاء السنن الطويلة ونحن لا نعرف أن نكتب بلغتنا سطرا واحدا. وإذا عرض لنا حديث ترانا نمزج فيه بين الكلمات العربية، والألفاظ

الأعجمية، ونرطن بلغات لا يفهمها إلا المتخرجون منا في مدارس الأجانب.

ولا يخفي أن أول شروط التعليم أن يعلم التلميذ مبادئ لغته، وأصولها قبل كل لغة، وعلم. وأن يدرس تاريخ بلاده، وجغرافيتها، وقواعد دينه، ومذهبه؛ ليكون له ذلك سلما يرقى بها إلى العلوم السامية، والمعارف الكمالية.

ونحن إذا نظرنا إلى حالة التعليم في كل بلاد المشرق نراها علي غير ما يجب أن تكون. فإن أول ما يلقى علي التلميذ من مبادئ العلوم دروس في اللغات الأجنبية، وآخر ما يختم به عمله كتب في اللغات الأجنبية أيضا. حتى أنك إذا التمست كتابا في العلوم العصرية مكتوبا باللغة العربية فقد لا تجده. وذلك لا لقلة المؤلفين والكتبة عندنا، بل لانصباب المدارس –حتى الأهلية منها– علي تعليم كل علم خارج عن علم اللغة بكتب الإفرنج، بل أن بعض المدارس قد اتخذت لتعليم اللغة العربية نفسها كتبا وضعها بعض الأوروبيين كما يعرفون، لا كما يجب أن تكون، ودفعوها إلينا قائلين: "خذوا لغتكم من رجال أعاجم".

ولا مراء في أن هذه الطريقة من أعظم الطرائق تسهيلا لقتل العلم في البلاد، وطمس آثاره؛ لأن التعليم علي هذه الصورة لا يمكن أن يكون إلا فاسدا، ومتى فسد التعليم ضاع ضياعا تاما، وعاد بعكس النتيجة التي تنتظر منه، بل كان الجهل أفضل منه.

وغني عن البيان أننا لا نقصد بما نلتمسه من إصلاح طرق التعليم أن تتقدم فقد اللغة العربية علي سواها في مدارسنا. فإننا وإن نكن نعد هذا الأمر ذا شأن عظيم، وتأثير بعيد في كل ما هو متعلق بنا، نرى أن جعل التعليم باللغة العربية لا يكفي وحده لإصلاح أحوال مدارسنا، وجعل العلم الذي يتلقاه أبناؤنا عائدا علي البلاد بالفائدة والنفع.

والذي نراه للوصول إلى هذه الغاية أنه لا بد من قلب نظام التعليم بإجماله، واستبدال الطرائق المتبعة الآن بما يكون أكثر انطباقا علي أحوالنا وشئوننا. لأن تعليم أبناء العامة ما لا يفيدهم، ولا ينفعهم من مسائل الفلسفة الوضعية، والفلسفة العقلية مثلا لا تكون نتيجته سوى نفخ روح الكبرياء في رؤوسهم، بحيث يصبحون متى دارت علي ألسنتهم مسألة من هذه المسائل وهم لا يفهمون رأسها من ذنبها كالضفدع التي رأت بقرة سمينة، فأحبت أن تقلدها، فانتفخت حتى تفزرت.

وإذا شئت أن نضرب لك مثلا شاهدا فأجل نظرك بين صفوف المدارس في هذا القطر، الكبيرة منها، والصغيرة. تجد نفس العلوم تلقى علي ابن الوزير، والتاجر، والخضري، والنجار، والحداد، والكناس كأنهم معدون كلهم لتحصيل العلوم السامية، والمعارف الكمالي،ة وكأنهم من ابن الوزير إلى ابن الكناس الغني منهم، والصعلوك الفقير سوف يشتغلون في درس القوانين، والطب، والهندسة، والتصوير، وما شاكل ذلك من العلوم العالية، والفنون الجميلة.

علي أننا لو تدبرنا لعلمنا أن هذه الطريقة لا يمكن إلا أن تعود بالضرر علي هؤلاء الأولاد الموكولين إلى عهدتنا. أن ابن الفلاح الذي تلقنه نفس العلم الذي لقنته ابن الوزير الغني يأنف متى خرج من المدرسة أن يشتغل بأرضه. ويعمل كما كان يعمل أبوه وجده.

ونحن نري في كل يوم رأي العين من الشواهد علي صحة هذا القول ما يكفينا مؤونة الإفاضة في الكلام عن هذا الموضوع.

فلو كان المتولون عندنا أمر التدريس، والتعليم، وبالتالي إعداد أبناء الأمة لأن يكونوا فيما بعد رجالا ينفعون أنفسهم، وبلادهم، ويخدمون عائلتهم ووطنهم يتنبهون إلى هذه المسألة الخطيرة لما بقيت الحالة علي ما هي عليه الآن،

ولما كان العلم في أغلب الأحيان آفة الشرق، وسبب الضرر الذي يلحق به.

ولسنا نخاف في القول ملاما فإننا إذا نظرنا إلى بعض شباننا المتعلمين بعين التبصر والتروي وددنا ألف مرة لو بقى هؤلاء دون علم، وكان الجهل أفضل لهم من هذا العلم الذي لم ينتج إلا الضرر، والأذى: كالشوك الذي ينبت في الحقل فلا يترك الأرض مستريحة، ولا يجني منه صاحب الأرض ثمرة.

وليس فينا علي ما نظن من يجهل أن من أعظم فضائل العلم أنه يعرف الإنسان قدر نفسه. ولكنه متى كان علي تلك الصورة لا يمكن أن يكون إلا ناقصا. ومتى كان العلم ناقصا فهو إنما يعلم الإنسان جهل قدر نفسه، وتلك غاية التعاسة في هذه الدنيا.

نقول أن العلم علي تلك الصورة لا يمكن أن يكون تاما، وذلك لأسباب جمة أهمها أن: ابن الفقير الذي تأتي به من وراء البهيمة في الحقل، أو من وراء كور أبيه في حانوته، وتجلسه إلى جانب ابن ذي ثروة ويسار لا يستطيع أن يفهم شيئا مما تلقيه من الدروس، وتشرحه من القواعد العلمية حتى الابتدائية منها. بل أنك إذا بدأت بتعليمه حروف الهجاء فإنه لا يستطيع أن يتعلمها كما يتعلم رفيقه من بني النعمة؛ وذلك أمر طبيعي لا يحتاج إلى دليل. فيضطر للسير مع رفاقه إلى القفز من درس إلى درس دون أن يفهم شيئا. أو أنه يفهم بعض الشيء، ولكن حالة والديه لا تسمح لهم بتركه في المدرسة يقضي فيها السنين والأعوام. وعلي كلتا الحالتين يكون عمله ناقصا لا فائدة منه، ولا نفع.

ولذلك قلنا أنه ينبغي تعديل طرائق التعليم عندنا تعديلا تاما، تنقلب معه عما هي عليه الآن، وتصبح منطبقة على أحوالنا، فيتلقي كل واحد منا ما هو في حاجة إليه من العلوم، أو ما يساعده علي تحصيل معاشه: سواء بالاشتغال في أرضه، أو العمل بصناعته.

وإلا فما زلنا متبعين طريقة التعليم التي نجري عليها منذ سنين، فإننا نستمر علي ما نحن عليه من الجهل مع اعتقادنا في أنفسنا أن العالم الجاهل الذي يحسب نفسه عالما أضر كثيرا بنفسه، وببلاده معا من الجاهل الذي عرف نفسه جاهلا.

ومن الشواهد علي هذا الأمر أنك لا تجد في الشرق، ولاسيما في الناشئين من أبنائه في المدارس التي تلقن العلم نصفيا إلا كل صاحب دعوى، وغرور بنفسه. وأنك لا تجد فينا إلا كل من يأنف من الاشتغال بحرفته، أو العمل بصناعته بحجة أنه متعلم، فلا يليق به أن يحمل سوى اليراع.

ولا مراء في أن هذه الحالة مضرة من كل الوجوه، وقد كان في ودنا لو نستطيع بيان أوجه الضرر كلها، فنثبت لكل مرتاب بفساد طرائق التعليم في الشرق، ووجوب إصلاحها أن الاستمرار علي هذه الطرائق، واجتناء ثمار الحقيقي أمران لا يسير أحدهما مع الأخر، ولكننا نشهد في كل يوم دليلا علي أضرار هذه الطريقة، بحيث لا نجد حاجة سوى التنبيه إليها ولو إلماعا. فيكون كلامنا بمثابة تذكرة لقوم لا يجهلون.